﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

القرآن هو البلاغ المبين للنّاس أجمعين، في كلّ عصر وحين

لَمّا ذَكَرَ اللّه تعالى في آخِرِ السّورَةِ قَبْلَها أشْياءَ مِنْ أحْوالِ القيامَةِ مِنْ تبديل السّموات والأرْض، وأحْوالِ الكُفّارِ في ذَلِكَ اليَوْم، وأنَّ ما أتَى بِهِ هوَ عَلَى حَسَبِ التَّبْليغ والإنْذار؛ ابْتَدَأ في هَذِهِ السّورَةِ بِذِكْرِ القُرْآنِ الَّذي هوَ بَلاغٌ لِلنّاسِ، وذكرِ أحْوالِ الكَفَرَة، ووِدادَتِهِمْ في ذلك اليوم لَوْ كانوا مسلمين[1].

ولَمّا خَتَمَ التي قبلها بعنوان الكتاب؛ ابتدأ هذه بشرح ذلك العنوانِ، وأوَّلُه وصْفُه بأنَّه جامع، والخير كلُّه في الجمع، والشرُّ كلُّه في الفُرْقَةِ، فقال تعالى: تلك الآياتُ العالية المقام، النفيسة المرام، آياتُ الكتاب الكامل غاية الكمال، الذي لا كتاب على الحقيقة غيره، الجامع لجمع ما يقوم به الوجود من الخيرات، القاطع في قضائه من غير شكٍّ ولا تردُّد، الغالب بأحكامه القاهرة في وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وإحكامه في إعجازه لجميع من يعانده[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّبِينٖ﴾: أصلُ الكلمةِ مِن البَيْن، وهو امتدادٌ بين طرفين أو جانبين مع فصل كبير أو اتساع، ومِنْ ذلك الفَصْلُ والتمييزُ. جاء معنى الوضوح والظهور، وهو المعنى الذي جاءت به كل مفردات التركيب القرآنية، عدا الظرف (بين)[3]؛ لأنَّ الفَصْلَ والتمييزَ يقتضي بُعْدَ الشَّيءِ وانْكِشافَه، فالبَيْنُ: الاتِّصال البَيِّنُ أو الفِراقُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/463.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/2.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

البَيِّنُ؛ يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ[1]، وسُمّيَ الكلامُ بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره، ويُقال: بَيَّنْتُه وأبَنْتُه: إذا جعلت له بيانًا تكشفه[2]. والمقصود بالـمُبِيْنِ في الآية: الـمُبالَغَةُ في الظُّهورِ والوضوح.

المَعنى الإجْماليُّ:

الـقـرآن المجيد جامعٌ لصِفات الكمال الأسنى، فـي الإعـجـاز واللّفظ والمعنى

افتُتِحَت هذه السّورةُ العظيمة بالحروف المقطَّعة؛ لبيان إعجاز القرآن؛ إذ تُبرزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضته بالإتيان بشيءٍ من مثله، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

ثمَّ أخبرَ اللّٰه تعالى أنَّ آياتِ القُرآنِ الكريم هي آياتُ الكتابِ الجامعِ لأنواعِ الكَمالِ، وهي آياتُ قرآنٍ عظيمٍ واضحٍ إعجازُه للخَلقِ، مُظهرٍ للحقائقِ بأحسَنِ بَيانٍ، وأوضَحِه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة تخصيص آيات القرآن، باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾:

آيـاتُ الـقـرآن ينبغي أنْ تكون حاضرةً، بمنزلةِ المنظور المُشاهَدِ

الإشارَةُ بـ﴿تِلْكَ﴾ إلَى ما هوَ مَعْروفٌ قَبْلَ هَذِهِ السّورَةِ مِنْ مِقْدارِ ما نَزَلَ من القُرْآنِ؛ إذ هو المتسارِعُ إلى الفهم حينئذٍ عند الإطلاق، وعليه يترتَّب فائدةُ وصف الآياتِ بنعت ما أضيفت إليه من نعوت الكمالِ فيما يأتي، أي: الآياتُ المَعْروفَةُ عِنْدَكُمُ القريبة منكم المُتَمَيِّزَةُ لَدَيْكُمْ تَمَيُّزًا كَتَمَيُّزِ الشَّيْءِ الَّذي تُمْكِنُ الإشارَةُ إلَيْهِ هيَ آياتُ الكِتابِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكون إشارةً إلى آياتِ السّورة، وهَذِهِ الإشارَةُ لِتَنْزيلِ آياتِ القُرْآنِ مَنْزِلَةَ المنظور المُشاهَدِ، أو للإشعارِ بأنَّها ينبغي أنْ تكون

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).

(2) الرّاغب، المفردات: (بان).

(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 588، والزّمخشري، الكشاف: 2/569، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/64، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 429.

حاضرةً مشاهدةً، فَمَنْ شاءَ أنْ يَسْمَعَها، ويَتَدَبَّرَها؛ أمْكَنَهُ، وعُبِّرَ باسم الإشارة الذي للبعيد مع قربِ الآياتِ المنزَّلةِ المتلوَّة؛ للتنبيه على بُعد منزلةِ المشارِ إليه وعُلوِّ منزلته في الفخامةِ والتَّعظيم[1]، أي: الآيات العالية المقام، النفيسة المرام[2]، البعيدة عن أنْ يطالها أحدٌ بسوء.

مقام الاستدلال بالتعبير باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾:

الحثُّ على النَّظر في آيات القرآن وتدبُّرها

عُبِّرَ باسم الإشارة هنا؛ للحثِّ على النَّظر في آياتِ القرآن القريبةِ منهم بذاتها، البعيدة عنهم بمنزلتها ومكانتها، المميَّزة أكمل تمييز؛ ليتبيَّنَ لهم أنَّه من عند الله، ويَعْلَموا صِدْقَ مَنْ جاءَهُمْ بِهِ؛ ولتكون في مقامِ الاستدلالِ على ذلك[3].

براعة الإخبار في مستهلّ السّورة:

آياتُ القرآنِ لا كمالَ فوقَها، في المعنى والفصاحة والبلاغة

قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وفيه أنّه لَمّا كان اسم الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ من المُبْهَماتِ فَسَّر المقصودَ منه خبرُه، وهو قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فتكون الإشارةُ إلى ما بعدَه من الآياتِ المنزَّلة، فيكون من قبيل الإخبار عن المبتدأ بمعناه؛ ليفيد معنى الكمالِ والإبداع والبراعة، بمعنى الآياتِ الكاملة التي لا كمالَ فوقَها في المعنى والفصاحة والبلاغة، وهذا هو الظّاهر، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الجملة الاسمية: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرًا عن حُروفِ ﴿الٓر﴾، ويكون ﴿الٓر﴾ مبتدأ؛ لِأنَّ المُخْتارَ في الحُروفِ المُقَطَّعَةِ في فَواتِحِ السّوَرِ أنَّ تَعدادَها للتَّحَدّي، والمَعْنَى: تِلْكَ الحُروفُ آياتُ الكتابِ وقرآن مبين، أيْ: مِنْ جِنْسِها حُروفُ الكِتابِ، وجَميعُ تَراكيبِهِ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الحُروفِ؛ لتسجيل عجزِهم عن معارضة القرآن، مع أنَّه من جنسِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/233، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/244، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/80، 14/8.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/2.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/81.

حروف كلامِهم، فما لهم لا يستطيعون معارضتها بمثلِها، فَلَوْلا أنَّ هذه الآياتِ مِنْ عِنْدِ الله؛ لَكانَ اخْتِصاصُ الكتابِ بِهَذا النَّظْمِ المُعْجِزِ دونَ كَلامِهِمْ مُحالًا؛ إذْ هوَ مُرَكَّبٌ مِنْ حُروفِ كَلامِهِمْ[1].

آياتُ الكتاب يشبه بعضُها بعضًا، في المعنى والبيان

سرّ الإضافة في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

إضافَةُ ﴿ءَايَٰتُ﴾ إلَى ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ تَحْتَمِلُ أنْ تكون إضافَةً شَبيهَةً بِالبَيانيَّةِ[2]، بمعنى آياتٍ هي الكتاب وهي قرآنٌ مبينٌ، وتَحْتَمِلُ أنْ تكون الإضافة على معنى (مِنْ)، والمعنى: آياتٌ من الكتابِ ومن قرآنٍ مبينٍ، أيْ: هي بعضٌ منه، فيكون الكتابُ والقرآنُ بمنزلةِ الظَّرفِ للآياتِ؛ تعظيمًا لشأنِ الآياتِ؛ إذ وصفَها بما يوصَف به الكلُّ، للإشعار بأنَّ بعضَ آياتِ الكتاب يشبه بعضها بعضًا في المعنى والبلاغة[3].

القرآن هو الكتاب الكامل، في بلاغه اليانع، وإعجازِه الماتع

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾:

(ال) للعهدِ بمعنى الكتابِ الكاملِ المعهودِ الغنيِّ عن الوصف به المشهورِ بذلك من بين الكتب الجدير بأنْ يختصَّ من بين سائر الكتب باسم الكتاب على الإطلاق، والمعنى: تلك آياتُ الكتاب الكاملِ في كونِه كتابًا من بين جميع الكتبِ المنزَّلةِ لِما تضمَّنه من المعاني التّامَّة والبلاغة الكاملة، فاستحقَّ أنْ يكونَ معجزًا لكمالِه[4].

دلالة التَّنكير في لفظ ﴿وَقُرْءَانٍ﴾:

أفادَ التَّنكيرُ التَّعظيم والتَّفخيم، بمعنى قرآنٍ عظيم الشَّأنِ[5]، فالقرآن يعلو ولا يعلى عليه.

اشتمال القرآن على ما في الكتب الإلهيَّة، من صفاتِ كمالٍ

براعة العطف بالواو، في ثنايا السّياق:

قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ وفيه، عطَفَ ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/233، وابن عاشور، التّحرير والتّوير: 11/82.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/81.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/233.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/116، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/63.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/5689، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/116، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/464.

على ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على طريق عطفِ التَّفسير، ومقتضى العطف يفيد التَّغايرَ في الوصفين، وإنْ كان عطفَ بيانٍ وتفسير، وتقدير الكلام: آياتُ الكتابِ وآياتُ قرآنٍ مبينٍ، والمراد بالكتاب القرآنُ، فوصف هنا بوصفين، وأفاد العطفُ تفخيمَ شأنه العظيم، بِما جُمع فيه من وصفَي الكتابيَّةِ والقُرْآنيَّةِ، فأفاد وصفُ الكتابيَّةِ أنَّ الآياتِ مجموعةٌ في كتابٍ، واشتماله على صفات كمال جنس الكُتُبِ الإلهية، فكأنَّه هو كلُّها، وأفادَ وصفُ القرآنية أنَّها آياتُ قرآنٍ متلوٍّ مُبِين، وكونَه ممتازًا عن غيره، نسيجَ وحدِه، بديعًا في بابه، خارجًا عن دائرة البيان[1].

نكتة تأخير وصف ﴿وَقُرۡءَانٖ﴾، على وصف ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الحثُّ على كتابة ما ينزَّل من القرآن، لحفظِه ومراجعتِه

أُخِّرَ وصفُ القرآنيَّة للإشارةِ إلى امتيازه عن سائر الكتبِ باسم القرآنِ بعد التَّنبيه على انطوائه على كمالات غيرِه من الكتب؛ ليكونَ أدخلَ في المدح، فاسْمُ القُرْآنِ أرْسَخُ في التَّعريف به من الكتاب، فالقرآن عَلَمٌ على الكتاب المنزَّل على سيِّدنا محمَّد ﷺ، والكتاب عَلَمٌ بالغلبةِ، فعُبِّرَ هنا بالكتاب أوَّلًا؛ كيلا يُتوَهَّمَ من أول الأمرِ أنَّ امتيازَه عن غيره لاستقلاله بأوصافٍ خاصَّةٍ به من غير اشتماله على نعوت كمالِ سائرِ الكتب الكريمة؛ ولِأنَّ المُعَرَّفَ هوَ أصْلُ الإخْبارِ والأوْصافِ، ثُمَّ جيءَ بِالمُنَكَّرِ؛ لِأنَّهُ أُريدَ وصْفُهُ بِالمُبِين، والمنكَّرُ أنْسَبُ بِإجْراءِ الأوْصافِ عليه، ولِأنَّ التَّنْكيرَ يَدُلُّ على التَّفْخيم والتَّعْظيم، فَوُزِّعَت دلالة الكمال ودلالة التَّعظيم على نُكْتَةِ التَّعْريفِ ونُكْتَةِ التَّنْكيرِ[2]، وفي التَّعبير بالكتابِ إشارةٌ إلى الأمر بكتابة ما يَنْزِلُ منه لحفظِه ومراجعته، كما أنَّ فيه إشارةً إلى المستقبل بأنَّ القرآن سَيُكْتَبُ، ويُجْعَلُ في كتابٍ محفوظٍ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/63، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/250.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/530، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/63، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/9.

سرّ إيثار مجيء الصّفة بلفظ ﴿مُّبِينٖ﴾:

القرآن بيِّنٌ في نفسِه، ومبينٌ لمن يقرؤه ويتدبَّره

أفاد مجيء الصّفة أنّ القرآن متّصف بصفة لازمة له غير منفكّةٍ عنه هي كونه مبينًا، والصفة ليست للتقييد، كما هو حال الصفات مع النّكرات بل هي للتّوضيح والبيان، فَإِنَّ كَوْنَهُ قُرْآنًا يَدُلُّ عَلَى أنَّ معانيه واضحةٌ بيِّنة، وهو مُبينٌ لمن يقرؤه متدبِّرًا؛ لِأَنَّهُ ما جُعِلَ مَقْروءًا إلّا لما في تَراكيبِهِ مِنَ المعاني المفيدة للقارئ، ولَمّا كان ﴿مُّبِينٖ﴾ مشتقًّا من الفعل (أبانَ) المتعدّي - كما هو الظّاهرُ - أفاد التَّعبير الكناية عن كونِه بيِّنًا في نفسِه، فإنَّه لا يكون مبينًا لغيرِه إلّا؛ إذا كان بيِّنًا واضحًا في نفسِه.

فائدة حذف متعلّق الوصف ﴿مُّبِينٖ﴾:

القرآن مبينٌ للنّاس طريقَ الهداية لاتّباعه، وطريق الضّلال لمجانفته

لَمّا كان الوصف مشتقًّا من الفعل المتعدّي - كما تقدَّم - دلَّ على أنَّ معمولَه محذوف، وحذف المتعلِّق لإفادة العموم من حيثُ المبدأ، بمعنى: أنَّ الآياتِ هي آياتُ قرآنٍ مُبينٍ؛ لأنَّه من عندِ الله بما تضمَّنه من وجوهِ الإعجاز، ولإفادة العموم من حيث المآل، بمعنى: أنَّ القرآنَ مبيِّنٌ للنّاسِ طريق الحقِّ والهداية، ومبيِّنٌ طريق الضلال والغوايةِ لتجنُّبها، فهو مبيِّنٌ لكلِّ شيءٍ[1].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ، بين آية الحِجْرِ (01) وآية النّمل (01):

تقديم لفظ القرآن وتأخيره، ومناسبة ذلك لسياقه

قُدِّم هنا الكتابُ على القرآنِ، وفي سورة النَّملِ قُدِّمَ القرآنُ على الكتابِ، فقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾ [النّمل: 1]، فَأمّا تَقْديمُ الكِتابِ عَلَى القُرْآنِ في هذه السورة؛ فَلِأنَّ سياقَ الكَلامِ في تَوْبيخِ الكافِرينَ وتَهْديدِهِمْ بِأنَّهُ سَيَجيءُ وقْتٌ يَتَمَنَّوْنَ فيه أنْ لَوْ كانوا مُؤْمِنينَ، فَلَمّا كانَ الكَلامُ موَجَّهًا إلَى المُنْكِرينَ؛ ناسَبَ أنْ يَسْتَحْضِرَ المُنَزَّلَ عَلَى سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ بِعُنْوانِهِ الأعَمِّ، وهو كَوْنُهُ كِتابًا؛ لِأنَّهُمْ حينَ جادلوا ما جادلوا إلّا في كِتابٍ، فَقالوا: ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/419.

عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ [الأنعام: 157]؛ ولِأنَّهُمْ يَعْرِفونَ ما عِنْدَ الأُمَمِ الآخَرينَ بِعُنْوانِ (كِتَابٌ)، ويَعْرِفونَهُمْ بِعُنْوانِ (أَهْلِ الكِتابِ)، فَأمّا عُنْوانُ (القُرْآنِ)؛ فَهوَ مُناسِبٌ لِكَوْنِ الكِتابِ مَقْروءًا مدروسًا، وإنَّما يقرؤه ويدرسه المؤمنون به، ولِذَلِكَ قُدِّمَ عُنْوانُ (القُرْآنِ) في سورَةِ النَّمْلِ، ولّما كان في التعريف نوع من الفخامة، وفي التنكير نوعٌ آخر، وكان الغرضُ الجمعَ؛ عُرِّفَ الكتابُ، ونُكِّرَ القرآنُ هاهنا، وعُكِسَ في النَّمل، وقُدِّم المعرَّفُ في الموضعين لزيادة التَّنويهِ[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/9.